المنار

١٣١٥

فقه علماء الدين يستمون القول فيتبعون احسنه اولئك الذين هداهم الله واولئك هم اولو الالباب

(قال عليه الصلاة والسلام : ان للاسلام صوى و « منارا » كمنار الطريق)

(مصر في يوم الاثنين ١٦ صفر سنة ١٣١٩ — ٣ يونيو (حزيران) سنة ١٩٠١)

السخاء والبخل (تتمة)

أتعجبُ من ضلال عامة الناس في فهم حقيقة السخيّ ، على ما له في نفوسهم القدر العليّ ، وإلباسهم البخلاء الشحاح ، لبوس اهل الجود والسماح ، ؟ أليس هذا الخطأ من اهل العلم والادب ، اجدر بنبْث بثار العجَب ، بعد ما رفع الله تعالى في القرآن ، من ذكر اهل البر والاحسان ، وجعل بذل المال في سبيله آية الايمان ، وامساكه آية الكفر والخسران ، إقرأْ ان شئت قوله تعالى : « ارأيت الذي يكذّب بالدين ، فذلك الذي يَدُعُّ اليتيم ولا يحضُّ على طعام المسكين ، » وقوله جل علاه ، « وويل للمشركين الذين لا يؤتون الزكاة » ، وارجع الى سورة الحجرات ، واتل ما ورد في الأعراب من الآيات ، فقد بينت حقيقة المؤمنين ، بعد انكار دعوى الايمان على اولئك المسلمين ، وذلك قوله تعالى « انما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدُوا بأموالهم وانفسهم في

سبيل الله اولئك هم الصادقون » . وناهيك بما ورد من الوعيد الشديد لمن يكنز المال ، ووعد المتصدقين بمضاعفة الاعمال ، وبعد ما جعل الشرع فى اموال المسلمين وكسبهم من حرث ونسل وتجارة ذلك الحق المعلوم . وفرض عليهم القيام بالنفقات الضرورية على من يعجز عن كسب يذهب بضرورته ، ويسدُّ من خلته ، سواء كان من المسلمين ، ام كان من الذميين ، وما هذا الالزام بالبذل ، الا لتزكية النفس من رذيلة البخل ، وتعويدها على الجود ، مما يسمح به الوجود ، وقد ورد فى معنى هذه الآيات احاديث كثيرة من اشدها وعيداً حديث البخاري فى الادب والترمذىّ فى صحيحه وهو : « خصلتان لا يجتمعان فى مؤمن — البخل وسوء الخلق » وفى رواية لغيرهما « البخل والكذب » . وحديث ابن ابى شيبة وهناد والنسائى والحاكم والبيهقي وهو : « لا يجتمع الشحُّ والايمان فى قلب عبد ابدا »

هذا شأن السخاء والبخل فى نظر الدين وما سلم رجال الدين معه من الخلاف فى تعريفهما عند ما انشأوا يضعون الحدود الجامعة المانعة للاصطلاحات الشرعية لبعد العهد باللغة وما يتبادر منها . فقالت طائفة : ان البخل هو منع الواجب من نحو زكاة ونفقة قريب . وهدم بعضهم هذا الحد قائلا : ان الذي يعطي عياله ما يفرضه القاضي من النفقة ثم يضايقهم فى لقمة زادوها ، او ثمرة من ماله اكلوها ، يعد بخيلا . ومن كان بين يديه طعام فحضر من يظن انه يأكل معه فأخفاه عنه فهو بخيل وكذلك من يرد اللحم الى القصاب والخبز الى الخباز لنقصان حبة او نصف حبة يوصف بالبخل كما وصفوا مروان ابن ابى حفصة .

وقال قوم : ان البخيل من يستصعب العطية فى نفسه وردّ هذا القول لاطلاق لفظ العطية فان السخي الجواد قد يصعب عليه ان يبذل جميع ما يملك او ما هو فى اشد الحاجة اليه لنحو وفاء دين او نفقة من تجب عليه نفقته بل السخيّ الحقيق يستصعب وضع المال فى غير موضعه واعطاءه لغير مستحقه كمن يعلم انه ينفقه فى معصية او يستعين به على مفسدة .

واختلفت اقوالهم فى السخاء والجود فقال بعضهم : هو عطاء بلا منّ واسعاف من غير رؤية . وهو قول غير مرضيّ لان البخيل قد يعطي لغرض من الاغراض التي شرحناها فى النبذة الاولى ولا يمنّ لئلا يحبط عمله ويخيب سعيه . وقد يسعف ولا يرى نفسه مسعفاً لعلمه بأنه يمنّ ليستكثر ويسعف ليسعَف . وقيل : هو العطاء من غير مسئلة . وهو كما ترى . وفصل القشيري فى رسالته بين السخاء والجود وفصل بينهما وبين البخل نقلاً عن استاذه الدقاق فقال : من اعطى البعض وابقى البعض فهو صاحب سخاء ومن بذل الاكثر وابقى لنفسه شيئاً فهو صاحب جود ومن لم يبذل شيئاً فهو صاحب بخل . وهو قول مردود ، غير محيط الحدود ، وقيل الجود ، بذل الموجود ، وهو قول من لا يميز فى العطاء ، بين التبذير والسخاء ،

والحد الصحيح ، الذى يشهد له النص الصريح ، هو ان السخاء أريحية ، وصفة نفسية ، تقف بصاحبها فى وسط ، بين تفريط القبض وافراط البسط ، بحيث يبذل المال بارتياح ، اذا حسن فى الشرع والعقل البذل والسماح ، فان بذل بغير ارتياح فهو متكلف محمود ، لانه يربى نفسه على الجود ، ولا يلبث ان يزول التكلف فيكون سخياً ، وتأنس

نفسه بالبذل فيكون جواداً حقيقياً ، والبخل كيفية من كيفيات النفس الخبيثة وخلق من اخلاقها الرديئة اذا عرض لصاحبه موجب البذل فى معروف ، او إغاثة ملهوف ، او مساعدة جمعية خيرية ، انشئت للمنافع المليّة ، ينقبض صدره ، وينقبض لصدره كفه ، فيبخل بالدرهم والدينار ، ويجود بالتعلات ويسخو بالاعذار ،

فمن اعذار البخلاء ، الإحالة على المشيئة والقضاء ، « واذا قيل لهم انفقوا مما رزقكم الله قال الذين كفروا للذين آمنوا أنُطْعِمُ من لو يشاء الله أطعمه إنْ انتم الا فى ضلالٍ مبين » ويقولون لو اراد الله بهؤلاء الفقراء خيراً لاعطاهم ، ولواقتضت حكمته ان يكونوا اغنياء لأغناهم ، ولا يقولون ان الله تعالى فضلنا عليهم ، فلنُفْضِ بشيء من فضل نعمه اليهم ، وجعل بعضنا لبعض فتنة ، فلنصبر على منحهم النوال كما صبروا على المحنة ، وحسبنا ان اليد العليا ، خير من اليد السفلى ،

ومن اعذارهم ان اكثر السائلين ، يظهرون على الغنى باخلاق المساكين ، فصلتهم ليست من البر ، ولا يعود على المرء منها اجر ، ومن اعذارهم ان انفاق المال فى غير مقابلة عمل ، يُغري الناس بالبطالة والكسل ، ولذلك يذمه الاوروبيون ، وهم فى ذلك محقون ، وبذل المال وإمساكه هو سبب خسراننا وفلاحهم ، وعلة خذلاننا ونجاحهم ،

فان قيل لهؤلاء واؤلئك : ان كنتم صادقين فى اعتذاركم ، ومسكين لما ذكرتم من تعلاتكم واعذاركم ، ومستَنين بسنة الاوربيين ، لانهم فى نظركم من المصيبين ، وليست ايديكم بسلاسل البخل مغلولة ، ولا بداء الشح الذميم مشلولة ، فامسكوا عن السائلين ، وامنعوا الكسالى والبطالين ،

فالشريعة قد ذمت السؤال ، وورد : ان الله يكره العبد البطال ، ولكن ما تقولون فى العجزة والضعفاء ، واليتامى الفقراء ، هل تجدون لكم عذرا فى تركهم سدى ، او تجدون على نار تقليد الاوربيين هدى ، وما تقولون فى الانفاق على المدارس العلمية ، والجمعيات الدينية ، التي بها نجح الاوربيون ، لا بالبخل والشح كما تزعمون ، فلماذا لا تتلون فيها تلوهم ، ولا تحذون حذوهم ، ؟ الم يأتكم فى كل يوم انباء بذلهم الالوف والملايين ، على معاهد العلم والصناعة والدين ، (١)

ولا تحسبن ايها القارئ الكريم ، الذى لم يكتنه خلق الشحاح اللئيم ، أن هذه الحجج الناصعة ، والبراهين القاطعة ، تقطع لسانه او تمحو بهتانه ، فتكون لسانه خير عقال ، وتحل يديه من السلاسل والاغلال ، كلا انه بعد بيان الآيات ، ليتعذر بعدم الثقة بالجمعيات ، فان كانت مؤسسة لاعانة العجزة والبائسين ، يقول انما نحن فى حاجة الى تربية اولاد الفقراء والمساكين ، وان كان من موضوعها التربية الملية ، يقول نحن احوج الى

(١) آخر انباء المنح الكبيرة نبأ المثرى الكبير كارنجي الاسكتلندي الذى وهب مدارس وطنه مليونى جنيه وثروة هذا الرجل تقدر بخمسين مليون جنيه . ولم ننس ذلك اليوناني العظيم الذي توفى فى السنة الماضية عن مليونى جنيه اكتسبها من القطر المصرى واوصى بثلاثين الف جنيه منها الف جنيه للجمعية الخيرية الاسلامية بمصر وهي هبة لم تر مثلها الجمعية من اغنياء المسلمين ولو كان فى مصر الف كريم كهذا اليوناني (ليلابولو) يعضدون هذه الجمعية لانشأت فى القطر مدارس صناعية بل ومدرسة كلية تكون منبعاً لنهضة جديدة ومن العار على كل غنى فى مصر ان لايكون لهذه الجمعية مثل هذه المدارس . ولو شئنا ان نسرد ما نشرته الجرائد العربية لا سيما المقتطف من اخبار الهبات العلمية فى اميركا واوربا لاحتجنا الى عدة مقالات

المدارس الصناعية ، وان كان من موضوعها ذلك ، وقيل له انه لا يتم الا بمساعدة امثالك ، يقول ليس عندنا استعداد ، للقيام بما يكون به الإسعاد ، ولا يسمع لمن يقول يجب اذن ان نسعى فى ايجاد ذلك الاستعداد ، ولا يتم ذلك الا بالبذل والإمداد ، لانه يرى ان اضاعة المال ، أن يدخل فى غير الصندوق او يخرج لغير الاستغلال ، ويصح ان يقال فى هؤلاء الاشحاء ، ماقيل فى الجبناء ، لان الجبن والشح من جب واحد

يرى الجبناء ان الجبن حزم وتلك خديعة الطبع اللئيم

وأختم القول بأنه لا عذر لمسلم فى دينه ، ولا لوطنى فى وطنه ، ولا ولا لانسان فى انسانيته ، ان يرى امته تتلاشى وتضمحل ، وملته تذوب وتضمحل ، وهو يعلم ان حياة الامم فى هذا العصر بالمال لانه هو الذى يرقى العلوم والفنون وهو الذى يربى النفوس والاخلاق وهو الذى يوجد الصناعة ، وينمى التجارة ويثمر الزراعة ، وهو الذى ينهض بالدولة ، ويعطيها القوة والصولة ، بل هو كل شىء اذ لا يتم بدونه شىء — يعلم هذا كله ثم لا يجود لانقاذها بشىء من فضل ماله . لا سيما فى هذه البلاد المصرية ، وفيها مثل الجمعية الخيرية ، القائمة على خير اساس ، ينفع البلاد والناس ، ومثل جمعية العروة الوثقى وجمعية المساعي المشكورة . وغيرهما من الجمعيات الدينية الادبية كجمعية شمس الاسلام وجمعية مكارم الاخلاق وجمعية شمس المكارم . فمن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليساعد هذه الجمعيات كلها او بعضها او ما يوافق مشربه منها بحسب الاستطاعة « لِيُنْفِقْ ذو سَعَةٍ من سعته ومن قُدِرَ عليه رزقه فلينفق مما آتاه الله لا يكلف الله نفساً الا ما آتاها سيجعل الله بعد عسر يسراً »